

حول تربية الأطفال وتعليم الجاهل

لِسَمَاحَةِ الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَبْرِ

قام بتنسيق المقال ونشره :

سَلْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْقَادِرِ أَبُو زَيْدٍ

ـ عَامِلُهُ اللَّهُ بِدُفْعِ الْخَفِيِّ، آمِينَ ـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وحده ، وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده محمد وآله وصحبه ومن سار على نهجه .

أما بعد:

فقد كثر السؤال عن استقدام الخادومات والمربيات والمعلمات ، وعملهن داخل البيوت ، وفي دور التربية والحضانة وروضات الأطفال ، كما كثر تناقل ما تفعله الجمعيات من اليهود والنصارى والمشركين في بلادهم ، كما في أمريكا ، وبريطانيا ، وأستراليا ، وكندا ، وروسيا ، وهولندا ، والولايات الأخرى التي تحاول عمل ما يصرف المسلمين عن أصل دينهم ، حيث تحتضن الأطفال الذين فقدوا آباءهم أو من يعولهم ، وقد جعلت لها مراكز في البلدان النامية ، مثل: مصر ، والسودان ، والسلفادور ، وهندوراس ، وكينيا ، وأوغندا ، والفلبين وغيرها . وهكذا الدعاة المنصرون الذين يغزون البلاد الفقيرة ، ويتنهبون حاجة أهلها وعجزهم ، فيفتحون بها مدارس ومعاهد ومستشفيات ، ويحرصون على تنشئة الأطفال على أيديهم ، ويتصرفون في المناهج العلمية ، ويربون أولاد المسلمين كما شاءوا ، ويلقنونه عقائدهم الكفرية ، وأديانهم المنحرفة ، ولقد نجحوا في كثير من مخططاتهم ، وأضلوا أعدادا وأفرادا وجماعات كثيرة من ناشئة المسلمين ذكورا وإناثا . وهكذا ما يفعله الكثير من المسلمين المعجبين - وللأسف - بالكفار وعلومهم ، حيث يبعثون أولادهم وفلذات أكبادهم من ذكور وإناث إلى تلك الدول المتقدمة - كما يعبرون - قاصدين منهم التربية والتدريب ، وتعلم لغاتهم الراقية في زعمهم؛ فلا تسأل عن آثار ذلك ومفاسده ، وأقرب ذلك وأشهره ما تؤثره تربية المستقدمين إلى بلاد المسلمين كالنساء اللاتي يتولين تربية الأطفال وحضانتهم ، وكالمدرسين والمعلمين في المدارس والمنازل ، من أولئك الأعداء الألداء الذين يضمرون العداء للإسلام وأهله ، ويحملون مذاهب هدامة ، أو كفرا بواحا ، أو بدعا منكرة مكفرة أو مفسقة ، قد أشربتها قلوبهم .

ولا شك أن كل أولئك على يقين من صحة ما يدينون به وأحقيته ، رغم بعد ذلك عن الصواب ، ولكنهم تربوا على تلك الأديان منذ الطفولة ، وتلقوا عقائدهم الزائفة عن يثقون بنصحه ، ولقنهم آباؤهم ومعلموهم ما يؤكد لهم صحتها وسلامتها ، وبطلان ما سواها ، فتمسكوا بتلك المذاهب والنحل وعضوا عليها بالنواجذ ، وزين لهم الشيطان أن الصواب في جانبهم ، وأنهم على عقيدة صحيحة الأصول ، قويمة الأدلة ، تلقوها عن يثقون بعلمه ونصحه ، فلهذا يندر أن يتخلوا عن معتقداتهم ودياناتهم ، وكيف يتحولون عن مذاهب ومعتقدات تقلدوها عن أسلافهم ومشايخهم الذين هم

محل ثقة عندهم وإجلال وإكبار ، فلا يتصورون أو يخطر ببال أحد منهم أن يصدر خطأ أو ضلال أو انحراف من أفراد علمائهم فضلا عن جماعتهم .

ولا شك أن أولئك الوافدين مع رسوخ تلك العقائد في نفوسهم ، ومع تمكنهم من إظهارها والدعوة إليها ، متى أمنوا الضرر فلا بد أن يحرصوا بكل ما أوتوه من جهد على نشر دياناتهم ، وترسيخها في نفوس من يتولون تعليمه محتسبين في ذلك الأجر والثواب ، كما قال الله عنهم: ﴿وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [سورة الكهف الآية ١٠٤].

لكن الدعاة إلى دين الإسلام الصحيح ، وعقيدة السلف الصالح ، يرجون من الله ما لا يرجو هؤلاء من التعليم أو التربية أو الحضانة .

فلا تسأل عما يقومون به من بث سمومهم ، ونفث شرورهم في أذهان من يحتكون بهم ، أو يتولون تنشئتهم وتعليمهم ، فيتلقن أولئك الأطفال والجهال ما يلقيه عليهم أولئك المربون والمدرسون من عقائد منحرفة ، وبدع منكرة ، مسلمين بصحتها ، محسنين الظن بأساتذتهم ومشايخهم الذين اختارهم أولياء الأمور لهم ليتربوا على أيديهم ، فيصعب بعد ذلك تخلي أحدهم عن هذه التوجيهات والتعاليم التي نشأ على استحسانها في صغره ، ويخيل إليه أن من خالفها فقد خالف الصواب ، ولو كان من آبائه وإخوانه أو المواطنين معه إلا من شاء الله تعالى .

فلا جرم أحببت أن أكتب كلمات حول هذا الموضوع تحت هذه العناوين:

شفقة الآباء ورحمتهم بأولادهم :

لا شك أن الإنسان العاقل يهيمه صلاح أولاده واستقامتهم ، ويتمنى سلامة فطرتهم ، ويسره تمسكهم بالحق وسيرهم على الصراط السوي ، وتحلقهم بمعالى الأخلاق وفضائل الأعمال ، وعملهم بتعاليم الدين الصحيح ، ويستاء ويشق عليه متى رآهم منحرفين ضالين قد خالفوا سنة الله تعالى وشرعه ، وتنبكوا الطريق السوي ، وارتكبوا المآثم وفعلوا الجرائم .

ولقد جبل الله الوالدين على محبة الأولاد والشفقة عليهم والرحمة بهم ، وإيثارهم بالمصالح والممذات في هذه الحياة الدنيا ، والخوف عليهم من أسباب العطب والمهلك ، فقد حكى الله تعالى عن نوح عليه السلام نداءه لابنه الذي عصى عليه ، فقال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة هود الآية ٤٢]. وبعد أن خرج الابن عن طاعة أبيه وتمرد عليه ، لم يغفل عنه بل دعا ربه أن ينجيه بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ [سورة هود الآية ٤٥]. فهو يتذكر أن ربه تعالى وعده بنجاة أهله بقوله: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [سورة هود الآية ٤٠]. فظن أن ابنه من أهله الذين وعد الله بنجاتهم ، ولكن الله تعالى عاتبه

بقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [سورة هود الآية ٤٦] أي: الذين وعدناك بنجاتهم . فعرف من هذا شفقة الوالد على ولده ولو كان عاصيا له وخارجا عن طواعيته . وهكذا ما حكى الله تعالى عن إبراهيم -عليه السلام- مما يدل على شفقته وخوفه على ولده ، ففي مقام الطلب والرجاء لما قال الله تعالى له: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [سورة البقرة الآية ١٢٤] .

فلم يغفل عن ذريته لما منحه الله هذه الإمامة التي هي جعله قدوة وأسوة لمن بعده من الناس الذين هداهم الله للإسلام ، فلما وعده ربه بهذه الإمامة لم يغفل عن ذريته؛ لحرصه على صلاحهم ، وأهليتهم لأن يكونوا قدوة للناس في أمر الدين الصحيح . وهكذا حكى الله تعالى عنه دعاءه لربه بقوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [سورة إبراهيم الآية ٤٠] . فما غفل عن ذريته بل أشركهم مع نفسه في هذه الدعوة الصالحة ، بأن يجعله مقيما للصلاة ، محافظا عليها ، وكذا ذريته؛ لما لها من أثر بليغ في صلاح الذرية واستقامتهم . وكل هذا دليل كمال الشفقة والرحمة للولد ، ورجاء أن يستقيموا على الخير ، ويسلكوا الصراط السوي المتمثل في إقامة الصلاة ، وما تؤثره من ثمرات وأعمال صالحة .

وهكذا في مقام الخوف ، فقد حكى الله تعالى عنه عليه السلام قوله: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [سورة إبراهيم الآية ٣٥] . فلم يقتصر في طلب النجاة من الشرك على نفسه ، بل أشرك بنيه ، فطلب نجاتهم من عبادة الأصنام؛ لما رأى من ضلال الكثير -كأبيه وقومه- بعبادة تلك الأخشاب والأحجار التي ينحتونها ، ثم يظنون لها عاكفين ، تقليدا لآبائهم وأسلافهم . وهكذا مدح الله تعالى إسماعيل -عليه السلام- بقوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ [سورة مريم الآية ٥٥] . والأمر منه يستدعي الطلب والحرص على التطبيق منهم للصلاة التي هي عماد الدين ، والتي ذكر أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والزكاة وهي حق المال .

وقال الله تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ [سورة البقرة الآية ١٣٢] إلى قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ [سورة البقرة الآية ١٣٣] . فهذا كله من تمام الحرص والشفقة على القريب الأدنى قبل البعيد من أنبياء الله تعالى ورسله ، وهم القدوة والأسوة لمن بعدهم ، فالأمر لهم يعم كل من دان بدينهم من أتباعهم . وقد ذكر ابن كثير -رحمه الله تعالى- عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [سورة طه الآية ١٣٢] . عن ابن أبي حاتم بسنده عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- كان يوقظ أهله لصلاة التهجد بالليل ، ويتلو هذه الآية الكريمة . فإن ظاهرها يعم صلاة الفرض والنفل .

ويدخل في الأهل: الأولاد والخدم والزوجات ومن تحت كفالة الإنسان ، كما ذكروا ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [سورة التحريم الآية ٦] يعني: أنقذوهم وخلصوهم من الكفر والبدع وكبائر الذنوب وصغائرها ، مما يسبب العقوبة الأخروية بدخول النار التي وقودها الناس والحجارة .

فوقائتهم تستدعي الحرص على تربيتهم ، وتهذيب أخلاقهم ، وتلقينهم في الصغر ما يعرفون به ربهم ودينهم ونبهم وما يلزمهم أن يدينوا به في هذه الحياة ، وبيان الحسنة والسيئة ، وأسباب كل منهما . فالوالد والولي الناصح يبذل جهده في تقويم موليه ، وفي نصحه وإرشاده ، وتحريضه على الخير ، وتحذيره من العاقبة السيئة؛ ليكون سببا في نجاته وفلاحه ، كما أن الله تعالى قذف في قلبه الرحمة التي تستجلب الرقة والشفقة في الدنيا ، فقد روى أبو هريرة -رضي الله عنه- : أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قبل الحسن ، فقال الأقرع بن حابس : إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم . فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « إنه من لا يرحم لا يرحم »^(١) ، وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت : قدم ناس من الأعراب فقالوا : أتقبلون صبيانكم ؟ لكننا والله ما نقبل . فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « أو أملك أن كان الله نزع منكم الرحمة » وفي لفظ : « أو أملك أن نزع الله من قلبك الرحمة »^(٢) ، وفي حديث أسامة بن زيد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما رفع إليه ابن بنته ، ونفسه تقعقع ، ففاضت عيناه -صلى الله عليه وسلم- وقال : « هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء »^(٣) فهذه الرحمة التي جعلها الله تعالى في قلوب الآباء يكون من آثارها الشفقة عليهم ، والحرص على إيصال الخير إليهم ، ودفع الشر عنهم ، سيما وقت الطفولية والحاجة ، وتستمر حتى الموت غالبا . فمتى كان يجب لهم الصحة والسلامة والبعد عن العطب والضرر فإن عليه أن يحرص على تقويم أولاده وتهذيب أخلاقهم ، وإرشادهم إلى ما ينفعهم في الدار الآخرة ويوصلهم إلى رضوان ربهم سبحانه وتعالى .

ما ورد في الأولاد وتأثيرهم على الآباء :

يشاهد أن الرجل متى رزق أولادا من ذكور أو إناث فإنه ينشغل بشأنهم ، ويهتم بتحصيل الرزق ، ويسعى في جمع المال ، ويكدح ويشقى في الطلب والتكسب ، وينشغل بذلك عن التعلم والتفقه ، ويؤثر البقاء والمقام معهم أو بقرهم ، ولو فاتته الفضائل والأعمال الصالحة ، فقد روى الترمذي^(٤) عن عمر بن عبد العزيز قال : زعمت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم قالت : خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذات يوم وهو محتضن أحد ابني ابنته وهو يقول : « إنكم لتبخلون وتجننون وتجهلون ، وإنكم لمن ربحان الله » قال الترمذي : " لا نعرف لعمر بن عبد العزيز سمعا من خولة " أي : فهو منقطع ، لكن عمر جزم به ، وقد لقي في المدينة من روى عن خولة يقينا ، ومعناه أن محبة الولد تحمل أباه على البخل بالمال ، والحرص على جمعه؛ ليخلفه لولده ، أو لينفقه عليه في حياته ، وكذا على الجبن الذي هو ضد الشجاعة ، فلا يخرج للجهاد خوفا من القتل وضياع أولاده ، فإن خرج لم يكن معه الجرأة على الإقدام ، وكذا على الجهل لإكبابه على التكسب ، والانشغال

(١) رواه البخاري في الأدب برقم ٥٩٩٧ ومسلم في الفضائل برقم ٢٣١٨ .

(٢) رواه البخاري في الأدب برقم ٥٩٩٨ ومسلم في الفضائل برقم ٢٣١٧ .

(٣) رواه البخاري في الجنائز برقم ١٢٨٤ ومسلم في الجنائز برقم ٩٢٣ .

(٤) هو في سننه كما في تحفة الأحوذ ٦ / ٣٧ باب ما جاء في حب الوالد لولده .

بالتجارات أو الحرف ، أو الأعمال التي يتحصل منها على المال ، فيبقى على جهله ، ويفوته التعلم والتفقه في الدين .

وقوله : « وإنكم لمن ريجان الله » أي : كالريجان الذي هو طيب الريح ؛ لأنهم يشمون ويقبلون ، فكأنهم من جملة الراحين ، فقد روى الترمذي^(١) عن أنس « أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يدعو الحسن والحسين فيشمهما ويضمهما إليه » ، وروى الطبراني في الأوسط^(٢) عن أبي أيوب قال : « دخلت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والحسن والحسين يلعبان بين يديه ، فقلت : أتحبهما يا رسول الله ؟ قال : وكيف لا وهما ريجانتاي من الدنيا أشمهما » ، وروى البزار^(٣) عن أبي سعيد قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « الولد ثمرة القلب ، وإنهم محبنة مبخلة محزنة » ، وروى أيضا عن الأسود بن خلف أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أخذ حسنا فقبله فقال : « إن الولد مبخلة مجهلة محبنة »^(٤) ، وروى الإمام أحمد^(٥) عن الأشعث بن قيس قال : قال لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « هل لك من ولد ؟ » قلت : غلام ولد لي في خرجي إليك ، ولوددت أن مكانه شبع القوم . قال : « لا تقولن ذلك ، فإن فيهم قرّة عين ، وأجرا إذا قبضوا ، ثم إنهم لمحبنة محزنة ، إنهم لمحبنة محزنة » ، وعن يعلى بن مرة الثقفي قال : جاء الحسن والحسين يسعيان إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فضمهما إليه ، وقال : « إن الولد مبخلة محبنة »^(٦) فهذه الأحاديث وما في معناها تدل على أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد نبه الأمة على ما هو أمر طبيعي واقعي من أن الآباء في الغالب يتصفون بالجبن والبخل ؛ لتأثير محبة الولد ، والشفقة عليه ، فإذا كانت محبة الولد ركيزة في القلب ، وظهر أثرها في العمل ، بشدة الطلب والجمع والتكسب ، ثم الإمساك والتقتير على النفس وعلى الأهل والضيف ، والتوقف عن الإنفاق في وجوه الخير ، فإن من الواجب والمؤكد أن يعنى الوالد بولده في التهذيب والسعي في الإصلاح ، والتعهد في الصغر وبعد الكبر ؛ ليكون قرّة عين لأبويه ، وتثمر التربية الصالحة بالاستقامة والبعد عن الانحراف والزيغ .

أسباب كثرة الانحراف في الشباب :

(١) كما في التحفة ١٠ / ٢٧٦ في مناقب الحسن والحسين .

(٢) ذكره الهيثمي في الفضائل من مجمع الزوائد ٩ / ١٨١ وفيه ضعف .

(٣) كما في كشف الأستار برقم ١٨٩٢ وفيه عطية العوفي وهو ضعيف .

(٤) هو في كشف الأستار برقم ١٨٩١ قال في مجمع الزوائد ٨ / ١٥٥ : "ورجالة ثقات "

(٥) هو في المسند ٥ / ٢١١ وفي سنده مجالد بن سعيد وهو ضعيف ، ويشهد له ما قبله من الأحاديث .

(٦) رواه ابن ماجه برقم ٣٦٦٦ وفي إسناده سعيد بن أبي راشد وثقه ابن حبان قال البوصيري في الزوائد ٤ / ٩٩ : " هذا إسناد صحيح رجاله ثقات " . وكذا صححه

الحاكم ٣ / ١٦٤ وأقره الذهبي .

المشاهد في هذه الأزمنة وقوع انحراف الكثير من الشباب عن الاستقامة ، وانهماكهم في الفساد ، وانغماسهم في الشهوات التي أردت بالكثير منهم ، وجلبت لهم الشرور والأضرار ، فعاثوا في الأرض فسادا ، وأضاعوا الصلوات ، وتعاطوا المسكرات والمخدرات ، ولذلك أسباب ومغريات (منها) الإهمال من الآباء والأولياء ، فإن أغلب الآباء - هداهم الله - منشغلون عن أولادهم ، فأحدهم يذهب إلى وظيفته أو مقر عمله كل صباح ، ويرجع آخر النهار ، وقد لا يرجع إلى منزله حتى يؤويه البيت ، فيتخلص النهار وهو في تقلب تجارتها أو حرفته وصناعته ، أو في زيارته واتصالاته بأصدقائه ورفقائه ، فلا يبقى لأهله إلا أقل الوقت وآخره ، فهو لا يتفرغ لأهله ، ولا يتفقد أعمال ولده ، ولا يحدث نفسه بما يحصل لهم من بعده ، فإما أن يكل تربيتهم إلى الخدم والمعلمين ، وإما أن يهملهم ويترك لهم الحبل على الغارب ، بحيث يتمكنون من الذهاب والتقلب كيف شاءوا ، والاختلاط بأهل الفساد والمعاصي ممن يزين لهم الوقوع في المسكرات ، وتعاطي المخدرات ، وشرب الدخان ، وسماع الأغاني ، والعكوف على النظر إلى الصور الخليعة ، والإكباب على الأفلام الهابطة ، والتمثيلات الماجنة ، فتفسد أخلاقهم ، وتنحرف طباعهم ، فتثقل عليهم الصلوات ، ويستصعبون حضور الجماعات ، ويهون عليهم أمر جميع العبادات ، ويعتادون غشيان المحرمات ، وينهمكون في الفساد ، وينغمسون في اقتراف الفواحش والمنكرات ، فلا ينتبه ولي أحدهم إلا بعد أن تتمكن من ولده تلك العادات السيئة ، وتصبح ركيزة في نفسه ، يندر أن يقلع عنها مهما بذل والده من النصح والتوجيه ، والتحذير والتخويف والتهديد ، ومهما فعل من الضرب والحبس والتعزير ، فيندم الأب ولات حين مندم ، ويعض كفاه على ما فرط منه من الغفلة والإهمال .

مع أن الكثير من الآباء وأولياء الأمور قد يغفلون عن أولادهم ، وينشغلون بحرفهم وأعمالهم ، فيصلح أولادهم ، وتتولاهم عناية الله ، ويحفظهم ربهم عن الأخطار والأضرار: ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [سورة الأعراف الآية ١٧٨] .

كما أن من أسباب هذا الانحراف في الشباب سوء التربية ، فإن الكثير من الآباء قد يتنزل على رغبة أهله وولده عندما يتضجرون أمامه ، ويشتكون الفراغ والتحجر والتضييق ، ويطلبون منه ما يسليهم ويفرج عنهم الهموم والأحزان ، ويشغلهم عن التفكير والتعقيد والانزواء ، فيرغبون إليه في جلب ما يرفهون به عن أنفسهم بزعمهم ، ويجلب لهم الفرح والانبساط ، ويضربون له الأمثال بفلان وآل فلان ، فينخدع بتعليلاتهم ، ويحزنه بكأؤهم وشكاياتهم ، فيلبي طلباتهم ، ويبدل لهم ماله رخيصة ، فيجلب لهم ما يفسد أخلاقهم ، وما يصدهم به عن سواء السبيل ، من آلات اللهو واللعب وأجهزة الأغاني وأشرطة الفيديو والكاسيت ، ومن الصحف والمجلات الفاسدة .

ولا تسأل عما في طياتها من خلاعة ومجون ودعارة وفساد ، وما تزرعه في نفوس الأولاد والأهل ذكورا وإناثا من ميل إلى الدعة والخمول ، والانقطاع عن الأعمال ، ومن اندفاع إلى اقتراف الفواحش ، وارتكاب المحرمات التي تمثلها لهم تلك الأفلام والأشرطة والصور الفاتنة ، حيثما يشاهدون فيها الصورة الفاتنة ، والمرأة المتبرجة شبه العارية ، وصور الشباب أمام النساء ، وما بها من حلق اللحى ، وشرب الدخان .

ولا تسأل عن تأثير هذه المراتب والمسموعات في قلوب الشباب ، على غفلة من الأب أو الولي ، زاعما أن هذا من باب التسلية والترفيه ، وتنشيط النفوس ، وإزالة السامة والملل ، ونحو ذلك من الأعذار الباردة ، ولم يشعر أن الذين نشروا هذه الملاهي ، وصوروا هذه الأفلام في هذه الآلات والأجهزة ، لهم أهداف سيئة زائدة على هدف الاستغلال ، واكتساح الأموال ، فإنهم قد عرفوا أن المسلمين من العرب وغيرهم ذكورا وإناثا عندهم من الفهم والإدراك ، وقوة الذاكرة ما يمكنهم من معرفة الصناعات ، والقدرة على الاختراع ، والإنتاج الفكري والعمل ، بحيث يستغني المسلمون عما يستوردونه من إنتاج أولئك الكفرة من الصناعات والأجهزة والأدوات . . . إلخ ، فتكسد سلعهم ، أو يقل من يحتاج إليها ، مما يضعف اقتصادهم ، ويقلل من الاحتياج إلى إنتاجهم ، فلعل هذا من أشهر مقاصدهم ، فانشغل به شباب المسلمين والعرب ، وصيروهم شغلهم الشاغل ، فضاعت أعمارهم فيما لا أهمية له ، أو فيما فيه هلاكهم المعنوي وهم لا يشعرون .

كما أن من أسباب الانحراف كثرة المفسدين ودعاة الضلال الذين وقعوا في شباك الردى ، وتمكن منهم الفساد ، فأحبوا أن يغروا جلساءهم وزملاءهم ، ويوقعوهم فيما وقعوا فيه ولم يستطيعوا التخلص منه ، وهدفهم أن يكثر أشباههم ، ويتمكنوا من الظهور ، ويقل الإنكار عليهم ، ويحتجوا على من أنكر عليهم بفعل الآخرين ، فكثيرا ما ننصح بعض الشباب عن شرب الدخان ، وحلق اللحية ، وسماع الغناء ، فيقول: الناس مثلي كثير؛ أما رأيت غيري ، هذا شيء موجود في العالم ، ألا ينكره غيرك؟! ونحو ذلك .

مع أنهم عند التحقيق يعرفون خطأهم ، وفساد ما اقترفوه ، ولكن لما تمكن ذلك منهم ، وسيطرت تلك العادات عليهم ، واستولى عليهم خلطاؤهم وزملاؤهم ، وتحكمت فيهم تلك الأفعال السيئة ، لم يجدوا بدا من أن يبرروا موقفهم بأن لهم قدوة ، وأن الناس سواهم كثير .

ونحن ننصح أولياء الأمور عن الإهمال والإضاعة لأولادهم وفلذات أكبادهم ، ونقول: إن الواجب على الأب وولي الأمر أن يتفقد جلساء ولده ، ويتحقق من صلاحهم واستقامتهم ، ومتى كانوا أفاضل وعبادا أتقياء ، من خيرة الشباب

وأهل الالتزام والعمل الصالح ، أوصاه بملازمتهم ، وحضه على مجالستهم ، وعلى الاقتداء بهم ، ومنافستهم ومسابقتهم إلى الخيرات وإلى حلقات العلم والمذاكرة والقراءة ، والحرص على الاستفادة ، وإن كان جلساؤه من أهل السفه واللهو ، وإضاعة الوقت ، وأهل الضحك والمزاح ، فإن عليه أن ينصحه بالبعد عنهم ، ويحذره من الجلوس معهم ، حرصا على الاستفادة من الزمان ، وعلى حفظ الأعمار فيما يعود على الإنسان بالمصلحة في دينه ودنياه .

أما إن كانوا من أهل الفساد والخراب ، وعمل الفواحش وفعل المنكرات ، والانهاك في المحرمات ، فإن صحبتهم تردي بمن صحبتهم .

وقد نهى الله تعالى رسوله - صلى الله عليه وسلم - عن مجالسة مثل هؤلاء بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة الأنعام الآية ٦٨] . والأمر لرسوله - صلى الله عليه وسلم - ولكل فرد من أفراد أمته .

والخوض في آيات الله تعالى يعم من يستهزئ بها ، أو يكذب بها ، أو يطعن في صحتها ، أو يعيب أهلها ، ويدخل في الآيات كلام الله تعالى وسنة النبي - صلى الله عليه وسلم - وأحكام الشرع ، والحلال والحرام ، فكل من خاضوا في ذلك بالباطل حرم الجلوس معهم ، ولو كانوا من المتسمين بالإسلام ، فمن جلس معهم غافلا عن الحكم ثم تذكر ، أو بدءوا بكلام مباح ثم انتقلوا إلى الخوض المنهي عنه ، فإن عليه المبادرة بالقيام عنهم إن لم يتأثروا بالنصح ، ولم يقبلوا المعروف ، وقد نهى الله تعالى المؤمنين على هذا الحكم ، وأكدته مرة أخرى بقوله: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ﴾ [سورة النساء الآية ١٤٠] . وهذا وعيد شديد ، وتهديد أكيد ، لمن جلس مع الخائضين في آيات الله ، والمستهزئين بها ، حيث اعتبر من جلس معهم مثلهم ، أي لإقراره وسكوته مع تمكنه من الإنكار ، أو من مبارحة المكان ، والبعد عن أولئك المستهزئين .

ولقد مدح الله تعالى عباده المؤمنين به حقا ، الذين وعدهم بمضاعفة الأجر بقوله: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [سورة القصص الآية ٥٥] . وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [سورة الفرقان الآية ٧٢] .

ويدخل في اللغو الخوض في آيات الله بالباطل والسخرية بالأحكام ، والتكذيب بالآيات ، والطعن في القرآن ونحو ذلك ، فكله من اللغو المنهي عنه ، فمتى اشتملت المجالس على مثل ذلك ، فإن العاقل الذي يريد نجاة نفسه يتركها ، ويربأ بنفسه عن مجالسة أهلها ، حتى لا يعلق به شيء من ضرهم وذنسهم ، فيصعب التخلص منه .

وقد أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بمجالسة أهل الصلاح والإصلاح ، والتمسك بالدين الصحيح ، والمؤمنين بالله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ [سورة الكهف الآية ٢٨] . وهؤلاء هم الذين أسلموا قديما ، وفارقوا الكفار ، وقاطعوهم ، فأمر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - بأن يصبر نفسه معهم ، ولا ينظر إلى غيرهم نظرة إكبار وإجلال .

وقد روي أن المشركين طلبوا من النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يطرد عنه ضعفاء المسلمين وفقراءهم ، من المماليك والموالي والحلفاء الذين أسلموا معه ، وذكروا أنهم يأنفون عن مجالستهم ، فهم النبي - صلى الله عليه وسلم - بطردهم طمعا في إسلام أولئك الأكابر من المشركين ليسلم غيرهم ، ولكن الله تعالى نهاه عن طرد أولئك المؤمنين بقوله: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [سورة الأنعام الآية ٥٢] إلى قوله: ﴿ فَتَطْرُدُهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة الأنعام الآية ٥٢] وفي هذا ترغيب في مجالسة الصالحين ، والقرب منهم ، والاستفادة من علومهم وأعمالهم ، وفي ضمن ذلك التحذير من مجالسة الأشرار والمفسدين ، وأهل الغي والضلال .

ولقد وردت السنة النبوية في التحذير من جلساء السوء ، والترغيب في صحبة الأخيار والصالحين ، والقرب منهم ، كما في قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : « مثل المجلس الصالح والمجلس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحا خبيثة » متفق عليه عن أبي موسى ^(١) . وروى أنس - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « ومثل مجلس الصالح كمثل صاحب المسك إن لم يصبك منه شيء أصابك من ريحه ، ومثل مجلس السوء كمثل صاحب الكير ، إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه » ^(٢)

(١) هو في صحيح البخاري برقم ٢١٠١ ، ٥٥٣٤ ومسلم برقم ٢٦٢٨ ورواه بقية الجماعة .

(٢) هو في سنن أبي داود برقم ٤٨٢٩ وإسناده صحيح .

قال النووي في شرح مسلم: " وفيه فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب ، والنهي عن مجالسة أهل الشر وأهل البدع ، ومن يغتاب الناس ، أو يكثر فجوره وبطالته ، ونحو ذلك من الأنواع المذمومة ". (١) هـ .

والتمثيل واقعي فالجلس الصالح إما أن يفيدك بفوائد علمية ، أو يدلك على خير ، وإما أن يحذرك من الشرور ، أو على الأقل يكون قدوة حسنة في قوله وفعله . أما المجلس السوء فهو إما أن يغويك ويوقعك في الردى ، وإما أن يكسلك عن الطاعات ، وإما أن يكون قدوة سيئة في أفعاله وكلماته .

وقد روى أبو سعيد - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: « لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي » (٢) قال في تحفة الأحوذى: " المراد منه النهي عن مصاحبة الكفار والمنافقين؛ لأن مصاحبتهم مضرة في الدين . « ولا يأكل طعامك إلا تقي » أي: متورع يصرف قوة الطعام إلى عبادة الله " . (٣) هـ .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: « المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل » (٤) والخليل هو الصديق المصاحب ، يعني أن الغالب على الإنسان الاقتداء بأصدقائه وجلسائه ، فهو يقتدي بهم ويحتذي حذوهم ، فإن كانوا صالحين سعد بهم في الدنيا والآخرة ، وجمعه الله بهم في دار كرامته ، وإن كانوا أشقياء أثروا فيه ، وأردوه وأوقعوه في الشقاء ، فيندم في الآخرة ، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعِضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ [سورة الفرقان : ٢٧ : ٢٨] . هكذا حكى الله عن هذا الظالم أسفه على خلة فلان الذي أضله عن الذكر ، وصده عنه ، وزين له الكفر والفسوق والمعاصي ، وقد قال تعالى عنهم وهم في العذاب: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ * وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [سورة الزخرف : ٣٨ - ٣٩] . أي لا يخفف عنهم اجتماعهم في العذاب ، بل تنقلب تلك الصداقة والمحبة عداوة وبغضا ، كما قال تعالى: ﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة الزخرف الآية ٦٧] .

والأخلاء هم الأصدقاء في الدنيا . وقال ابن عبد القوي (٥) :

(١) انظر شرح النووي على مسلم ١٦ / ١٧٨ .

(٢) رواه أبو داود في الأدب برقم ٤٨٣٢ ، والترمذي برقم ٢٣٩٧ وإسناده حسن . ورواه أحمد ٣ / ٣٨ ، والحاكم ٤ / ١٢٨ وصححه ووافقه الذهبي .

(٣) انظر تحفة الأحوذى على الترمذي ٦ / ٧٦ للمباركفوري .

(٤) رواه أبو داود برقم ٤٨٣٣ ، والترمذي برقم ٢٣٧٩ ، والحاكم ٤ / ١٧١ وإسناده حسن ، وصححه الحاكم والذهبي .

(٥) انظر هذه الأشعار ونحوها في (الأدب الشرعية) لابن مفلح ٣ / ٥٦١ وقد أطلت في هذا الموضوع ، فراجعه إن شئت ، فقد أجاد وأفاد - رحمه الله تعالى - .

وصاحب إذا صاحب كل موفق *** ولا تصحب الأردى فردى مع الردي
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه *** فكل قرين بالمقارن يقتدي

وهذا أمر مشاهد ، فيعرف كل إنسان بجلسائه ، ومما يروى عن علي :

فلا تصحب أبا الجهل *** وإيـاك وإيـاه
فكم من جاهل أردى *** حليما حين آخاه
يقاس المرء بالمرء *** إذا ما المرء ماشاه
وللشيء على الشيء *** مقاييس وأشباه

وفي القصيدة المعروفة بالزينية قوله:

واحذر مصاحبة اللئيم فإنه *** يعدي كما يعدي الصحيح الأجرب

وكلام العلماء في اختيار الصحبة كثير ، وفيما ذكرنا كفاية .

أهمية الوقت والحرص على استغلاله فيما يفيد :

لما كان كثير من الآباء يشغل أولاده بما يذهب عليهم الزمان؛ لطول الفراغ ، والاحتياج إلى الانشغال فيه بما يخففه - في زعمه - أحيينا أن نشير هنا إلى أهمية الوقت ، وأفضل ما ينشغل المرء فيه . فإن الوقت الذي هو الليل والنهار هو كرأس مال الإنسان في التجارة ، يحافظ عليه العاقل ، ويتحفظ في تصرفه أن يذهب إن أساء العمل ، أو ينقص فيخسر ويندم . فهكذا عمره في هذه الحياة هو الذي يربح إذا استغله في الخير والعلم والعمل الصالح ، ويخسر في ضد ذلك ، فيجب على العاقل أن يهتم بشغل فراغه فيما يعود عليه بالفائدة العائدة عليه بالخير في دنياه وآخره ، متذكرا أنه مسئول ومحاسب عن زمانه ، كما روي عنه - صلى الله عليه وسلم - قال: « لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع - أو عن خمس - عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفق ، وعن علمه ماذا عمل به »^(١).

(١) رواه الترمذي في أول أبواب القيامة عن أبي برزة الأسلمي برقم ٢٤١٩، وعن ابن مسعود برقم ٢٤١٨ وصحح حديث أبي برزة. وحديث ابن مسعود حسن،

وشاهده ما قبله.

فقد ذكر من هذه الخصال العمر كله ، وخص الشباب مع أنه من جملة العمر ، وذلك أن عادة الشباب ميلهم إلى اللهو واللعب والبطالة وإضاعة الوقت ، ومن لم يكن منهم كذلك فهو محل غرابة وعجب ، حيث مال عن ما يقتضيه الصبا والجهل ، ولهذا ورد في الحديث عن عقبة بن عامر رفعه: « عجب ربك من الشاب ليست له صبوة »^(١) فمتى ترك الشاب هواه وما يتمناه فإن نفسه تميل عادة إلى اللهو واللعب والمرح والبطالة ، فمتى مكنه وليه من مراده فإنه ينهمك في ذلك ، ويغفل عن مصالحه العاجلة والآجلة ، وينغمس في دحض الباطل والفساد حتى يتمكن ذلك من نفسه ، ولا يشعر بالخسران المبين حتى يعقل ويتفكر ويحتاج إلى نفسه ، فحينئذ يبلغ منه الأسف والندم مبلغه ، وقد فات الأوان .

ولا شك أن العاقل يجب عليه أن يستحضر نهايته ، ويفكر في مستقبله ، ويتذكر عاقبة أمره ، فيستغل زمانه في كل شيء يعود عليه بالمصلحة في دينه ودنياه ، ولا يفرط في لحظة من لحظات عمره بإضاعتها فيما لا فائدة فيه ، متذكرا قول الله تعالى مخاطبا لأهل النار: ﴿ أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكَّرٍ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ [سورة فاطر الآية ٣٧] . فقد ذكرهم ربهم تعالى بأنه عمرهم أي: مد لهم في الأعمار ، بحيث يتمكنون من التذكر والتفكير في عاقبة أمرهم ونهايتهم ، فيعملون ما فيه نجاتهم من العذاب والنكال ، ويشغلون أوقاتهم بما يعود عليهم بالفائدة والخير في دنياهم وأخراهم .

ولا شك أن كل يوم يمر بالإنسان فإنه يقربه إلى الآخرة ، ويدنيه من أجله ، وأن كل ليل أو نهار يطوى على ما فيه من خير أو شر: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [سورة الزلزلة : ٧ - ٨] .

ولقد أمر الله تعالى نبيه - صلى الله عليه وسلم - بالعمل في وقت فراغه بقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ [سورة الشرح الآية ٧] أي: فاعمل في ساعة تتفرغ فيها ما تستفيد منه لآخرتك ، وبهذا يعرف أن ليس هناك وقت يسمى فراغا ، بل كل ساعة أو جزء منها لا يكون عند الإنسان فيه عمل فسوف يجد ما يعمل فيه ، ولو بالذكر والتلاوة والعلم والعمل .

فالعاقل يبخل بعمره أن يضيع منه شيء سهيلا ، دون أن يستفيد من كل ساعة تمر به ، حتى لا يخسر جزءا من حياته ، مستحضرا قول الشاعر^(٢):

أليس من الخسران أن لياليا * * * تمر بلا نفع وتحسب من عمري

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ٤ / ١٥١ ، وابن عدي في الكامل ٤ / ٦٥ وفيه ضعف .

(٢) ارجع إلى ما ذكره ابن رجب - رحمه الله - في أول كتابه (لطائف المعارف) حيث توسع في هذا المعنى .

وهذا يعرف خسران الكثير من أكابر وأصاغر يظهر الممل من طول الوقت ، ويقبلون على اللعب بما يسمى البلوت ، ونحوه من الملاهي ، أو على ما يعرضونه من أفلام خليعة تحوي صوراً ماجنة ، وقصصاً خيالية ، تشغل الأفكار ، وتضيع الأعمار ، وكان الأولى أن يضمنوا بتلك الساعات الثمينة ، ويشغلوها في تلاوة القرآن ، أو مذاكرة في حديث أو فقه ، أو أدب أو تاريخ فيه عبرة ، أو تعلم وتعليم ، أو أذكار وعبادات ، ونصائح وإرشادات ، أو عرض لمواضيع تهم المجتمع ، وسعي في نفع المسلمين ، فإن الكثير من أولئك الذين يظهر الممل والسامة من طول الوقت وكثرة الفراغ ، ويعملون أعمالاً وألعاباً يستفرغون بها زمانهم ، لو تعلموا فيه أحكام دينهم ، أو تدبروا وقرأوا كتاب ربهم ، أو تفقهوا في دينهم ، لاستفادوا من فراغهم فائدة كبرى ، فإن الغالب عليهم الجهل المركب ، فلو سألتهم عن معنى آية أو حديث فقهي ، أو تفسير غريب ، أو محتوى كتاب مشهور لما أجابوا بقليل ولا بكثير .

فما أخسر صفقة من أضاع وقته الثمين وعمره الطويل في غير فائدة دينية أو دنيوية .
وأخسر منه من شغل عمره المديد في ضد الطاعة ، من عكوف على الملاهي ، وسماع للأغاني ، وإنصات لقصص وأضحكات ، وتماثيل خيالية ، نسجتها أيدي الأعداء الألداء ، لهدف إضاعة الأوقات ، واستفراغ الأعمار باسم التسلية والترفيه عن النفس ، ترفيها بريئاً كما يعبرون : ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [سورة الشعراء الآية ٢٢٧].

مسئولية الآباء وأولياء الأمور :

لقد ثبت في الصحيح قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته »^(١) الحديث . فرعاية الرجل لأهل بيته هي سياسته لأمرهم ، وإيصالهم حقوقهم الواجبة ، قال الحافظ ابن حجر في الفتح في شرح هذا الحديث^(٢) : وجاء من حديث أنس « فأعدوا للمسألة جواباً » وسنده حسن ، ولابن عدي بسند صحيح عن أنس رضي الله عنه : « إن الله سائل كل راع عما استرعاه ، حفظ ذلك أم ضيعه »^(٣) وقد روى الترمذي^(١) حديث ابن عمر ، وأشار إلى ما في الباب من حديث أبي موسى وأنس ، ثم ذكر أسانيدها ، ورجح فيها الإرسال .

(١) رواه البخاري في مواضع أولها رقم ٨٩٣ عن ابن عمر ، وأخرجه بقية الجماعة .

(٢) انظر الفتح ١٣ / ١١٣ حيث شرح الحديث هناك .

(٣) كما في الكامل ١ / ٧٣٠ .

وبالجملة فالحديث صحيح عن ابن عمر وغيره ، ومعلوم أن الرعاية تستلزم الأمانة ، والاجتهاد في حفظ الرعية ، والنظر في المصالح ، والإبعاد عن أسباب الضرر والهلاك ، فإذا شعر العبد بأنه مسترعى على أهل بيته ، فإنه يحرص على من استرعاه الله إياهم ، ويبذل جهده في إصلاحهم ، وجلب الخير لهم ، وحراستهم عن الشرور والأضرار وأسباب الهلاك والتردي ، فلا بد أن يعد للسؤال جوابا ، وللجواب صوابا .

كما أن العاقل يعلم أن مصلحته في حماية الرعية التي تحت يده ، حيث إن صلاحهم واستقامتهم يجلب له السعادة ، والحياة الطيبة ، وقرة العين عندما يرى ثمرة عنايته قد أينعت وأسفرت عن ذرية صالحة ، تبر بالوالد ، وتحنو على الولد ، وتطيع الله تعالى ، وتعمل الأسباب في النجاة من عذابه . فإن أصل الرعاية في رعي بهيمة الأنعام أي : إسامتها ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ [سورة النحل الآية ١٠] . وقال تعالى : ﴿ كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْعَامَكُمْ ﴾ [سورة طه الآية ٥٤] .

فرعاة الدواب المأمونون الناصحون يلاحظونها ، ويقصدون بها الأماكن المعشبة ، ويراقبونها بنظرهم ، ويحفظونها عن السباع والللصوص والضياح ، فمتى فرط الراعي في الحفظ والانتباه فإنه مسئول عما ند منها وملزم بالضمان ، وقد قال الشاعر^(١) :

ومن رعى غنما في أرض مسبعة * * * ونام عنها تولى رعيها الأسد

وهكذا يكون أولياء الأمور متى فرط أحدهم ، وأهمل أولاده ، وغفل عن مصلحة رعيته ، فإنه يعتبر ملوما وسوف يحاسب على تفريطه ، ويندم على إهماله ، وبطريق الأولى من أفسد رعيته ، ورباهم على سماع الفحشاء والمنكر ، وجلب لهم الأجهزة التي تفسد أخلاقهم ، وتقضي على معنوياتهم ، فإنه مسئول عن إفسادهم وسيندم حين لا ينفع الندم .

القدوة الحسنة والقدوة السيئة :

المعتاد والغالب أن الأبناء والذرية يقتدون بالآباء والمربين والمعلمين ، كما حكى الله ذلك عن أهل الجاهلية في مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ أَلَفُوا آبَاءَهُمْ ضَالِينَ ﴾ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ [سورة الصافات : ٦٩ - ٧٠] . وقال تعالى : ﴿ مَا أَرْسَلْنَا

(١) كما في تحفة الأحوذى ٥ / ٣٦١ في الجهاد، باب ما جاء في الإمام.

(٢) هو أبو مسلم الخراساني، كما في ترجمته في سير أعلام النبلاء ٦ / ٥٣ ، وتاريخ بغداد ١٠ / ٢٠٨ .

مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ [سورة الزخرف الآية ٢٣]
 [وقال تعالى عن قوم إبراهيم: ﴿ بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكُمْ يَفْعَلُونَ ﴾ [سورة الشعراء الآية ٧٤] . وقال تعالى عن قوم
 هود: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ [سورة الأعراف الآية ٧٠] . وغير ذلك من الآيات .

فالآباء قدوة حسنة أو سيئة لأولادهم ، والاقتداء هو التقليد والاتباع ، والتمسك بما عليه الأسلاف من عقيدة أو عمل .
 فالمعتاد أن الأبناء يحسنون الظن بآبائهم ، ويتمسكون بما كانوا عليه ، ويعتقدونه سفينة النجاة ، ففي قصة موت أبي طالب
 لما قال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: « قل: لا إله إلا الله . كلمة أحاج لك بها عند الله » قال له الحاضرون من المشركين:
 أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب «^(١) .

وقد قال عن قوم نوح: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ [سورة المؤمنون الآية ٢٤] . وذلك دليل شدة تمسك الخلف
 بسنة من سبقهم ، وتصلبهم في ما تلقوه عنهم ، كما قال عن المشركين: ﴿ مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ
 آبَاؤَكُمْ ﴾ [سورة سبأ الآية ٤٣] .

ثم إن هناك أخص من التقليد في العقائد ألا وهو تآسي الذرية والأطفال بما عليه المربون وأولياء الأمور ، واتباعهم في
 أفعالهم وأقواله م ، دون تفكير في الحسن والقيح ، والضر والنافع ، والخير والشر ، فمتى كان المربي أو الولي مستقيماً متبعاً
 للحق ، فإن من تحت يده غالباً يقتدون به ، فتراهم يحافظون على الصلوات في الجماعة ، ويتقربون بالنوافل ، ويسابقون إلى
 المساجد ، ويواظبون على الأذكار والأدعية عقب الصلوات المكتوبة ، ويكثر من ذكر الله تعالى وتلاوة كتابه وتدبره ،
 ويحبون الخير وأهله ، مقتدين في ذلك بمن يربيههم ويعلمهم ، ويرون أن ذلك هو سبيل النجاة ، وإن لم يكن الولي أو المربي
 يعلمهم ويلقنهم هذه الفضائل والفوائد ، فأما إن أضاف إلى أفعاله الحسنة النصيح والإرشاد ، وتوجيه من تحت يده ،
 وترغيبهم في فعل الخيرات ، وحثهم على الإكثار من القربات ، فحدث ولا حرج عن تأثرهم وتقبلهم وتلقيهم لنصائحه
 وإرشاداته ، واطمئنانهم إلى صحة ما يهديهم إلى فعله ، وتطبيقهم لكل صغيرة وكبيرة يدعوهم إليها غالباً .

وبضد ذلك نرى أن الآباء وأولياء الأمور والمربين والمعلمين متى كانوا منحرفين زائغين ، ظهر الفساد غالباً فيمن تحت
 أيديهم من الأطفال والذرياري ، فينشئون على استعمال السباب والشتم واللعن والقذف والعيب والثلث وسيئ المقال أو
 على الوقاحة والردالة والرعون والجفاء وخشونة الطبع ، أو على الانحراف في الأخلاق والطبائع ، أو على الحسد والظلم
 والكذب والخيانة والسرقه والاختلاس والفجور وقول الزور ، أو على المعاصي الظاهرة ولو كانت منكورة في العقل

(١) أخرجه البخاري في الجنائز برقم ١٣٦٠ وفي تفسير التوبة، ورواه مسلم في الإيمان برقم ٣٩.

والفطرة ، فتراهم يقلدون أكابرهم ومشايخهم في شرب الدخان ، وحلق اللحى ، وتعاطي المسكرات والمخدرات ، والعكوف على سماع الأغاني والملاهي ، والنظر في الصور الفاتنة ، والصحف الماجنة ، والأفلام الهابطة ، ونحو ذلك .

ولا شك أن إظهار أمثال هذه المعاصي أمام النشء الصغير غير المميز ، مما يدفعه إلى التلوث بها ، أو ببعضها ، سواء تهاون والده به بادئ ذي بدء أو حذر منها ، فإذا أعلن فعلها أمام الأطفال والجهال ، حتى نشبوا في تلك الحبائل ، ثم حاول تخليصهم وإنقاذهم منها تعب في ذلك ولم يستطع ، فيندم حين لا ينفع الندم . فلا تسأل عما يحدث من جراء التخلق بمثل هذه الأخلاق الرذيلة ، حيث يتحلى الولد بالعقوق والعصيان ، والمخالفة الظاهرة لولي أمره ، ويصبح كلا على أبويه ، يذيقهما مرارة الحياة ، ويجرعهما غصص الأذى ، حيثما لم يترب على معرفة حق الله تعالى ، وما أمر به في حق الأبوين ، وإنما يسعى في نيل شهوته البهيمية ، واتباع غريزته الدنية ، ونيل ما يهواه ، دون مبالاة بحل أو حرمة أو حق لله أو للوالدين ، حيث لا يعرف من العلم والدين ما يردعه أو يمنعه عن العبث بحق ربه وأهله ، كما يعبث الطفل بلعبته .

ولقد كثر هذا الضرب في شباب المسلمين ، فتراهم يتسكعون في الأسواق والطرق ، يعاكسون ، ويارسون المنكر ، وتجدهم طوال الليل على الأرصفة وأطراف الطرق المتطرفة ، وفي الصحاري وخارج المدن ، يلعبون ويمرحون ، ونرى أحدهم في جلسائه وقد أشعل سيجارته ، وتفيهق في مشيته ، وتحلى كما تتحلى الإناث بالتختم بالذهب أو الضيق من اللباس ، مما يسبب التأنت والانحراف عن شيم الرجال وشهامتهم ، فنهاية أحد أولئك الكسل والبطالة ، فتراه عاطلا خاملا ، فلا نجاح في الدراسة ، ولا لزوم لعمل مفيد ، ولا حرفة ولا صناعة ، حتى إن الكثير من آبائهم يتمنون لهم الموت سريعا .

وكم حاول بعض الأولياء القضاء على هؤلاء - ولو كانوا أبناءهم - وإعدامهم من الوجود؟ لما يلاقونه من الأذى وسوء المقال ، وتكبد الخسارة ، وإنفاق الأموال الطائلة عليهم ، وهذا هو نتيجة الإهمال في زمن الإمهال ، أو هو أثر التربية السيئة ، والتنشئة على اللهو والباطل ، حتى تمكن فيهم الفساد ، فحاول الولي إقامتهم ولات حين مناص .

حكم تربية الكفار لأولاد المسلمين :

لقد قرأت سابقا ما نشر في جريدة الرياض عدد (٥٢٧٧) وتاريخ ٢ / ٢ / ١٤٠٣ هـ تحت عنوان (هل تصح كفالة المسيحي للمسلم) بقلم عبد الله السباك ، الذي ذكر أنه اتفق صدفة بخواجة أسترالي ، وعلم بواسطته أن هناك جمعيات في بلاد النمسا ، كبريطانيا وأستراليا وهولندا وكندا والولايات المتحدة ، وأن تلك الجمعيات تعمل ما يكون صرفا لأولاد

المسلمين عن دين الإسلام ، وذلك بكفالة الأطفال الذين فقدوا آباءهم ومن يعولهم ، وأنها جعلت لها مراكز في البلدان النامية . . . إلخ .

وأنا أجيب على عنوان المقالة الذي جاء بالاستفهام عن حكم كفالة المسيحي للمسلم ، فأقول: لا يجوز شرعا تمكين الكفار من الولاية على المسلمين ، فإن ديننا الحنيف قد جاء بالتفريق بين الأقارب لأجل الإسلام ، نهى عن موالاة من حاد الله ورسوله ولو كان من الآباء أو الأبناء أو العشيرة فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ﴾ [سورة التوبة الآية ٢٣] . وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة النساء الآية ١٤٤] . وقال تعالى: ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ [سورة آل عمران الآية ٢٨] .

وأمر الله تعالى بالهجرة من بلاد الكفر ، ومفارقة الأهل والقبيلة ، رغم ما ركب في الفطر من حب الأوطان والتعصب للقبائل؛ فتجب الهجرة والفرار من البلاد التي يعلن فيها الكفر ، ويستذل فيها المسلمون ، ويلقون الأذى ، ويسمعون السخرية والاستهزاء بدينهم وبحرمات الإسلام؛ فيجب عليهم الخروج منها حفاظا على الدين ، وحرصا على التمسك بالعقيدة ، وإعلان العمل بشعائر الإسلام ، وإنما عذر الله من الهجرة المستضعفين بقوله تعالى: ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ [سورة النساء الآية ٩٨] .

وذلك أن بقاء المسلم بين ظهري قوم كفار يكون سببا في تعذيبه وأذاه ، وإلحاق الضرر به ، أو سببا في افتتانه ورجوعه عن دينه ، وإذا كان هذا يتصور في الرجل الكبير العاقل ، فكيف بالطفل الصغير الذي لا يميز بين الأديان ، فيجب إبعاد أولاد المسلمين عن ولاية الكفار والمشركين وأهل البدع والمعاصي؛ وذلك لأن كل فرد غالبا يتأثر بالمجتمع الذي يعيش فيه ، ويألف العادات والأعمال والأخلاق المنتشرة الشائعة في الوطن الذي يعيش فيه ، وبين المواطنين الذين ينشأ بين ظهرانيهم ، وتظهر وتنطبع آثارها في ديانتهم ومعتقدهم ومعاملاتهم .

فإن عاش الطفل وتربى في بلاد تحكم بالشرع الشريف ، وتطبقه في العادات والقربات ، فتؤدي الواجبات الدينية ، وتتجنب المحرمات ، وتتزهد عن الجرائم ومساوئ الأخلاق ، فإن هذه الأعمال -ولا بد- سوف تتحكم في ميوله ، ويهواها بقلبه ، ويألفها وينصبغ قلبه بمحبتها ، ويبغض أضدادها وينفر منها ، ويكره أهلها ويمقتهم .

أما إن تربى في مجتمع يظهر الفساد، ويعتدي على العباد، ويبطش بغير حق، ويخالف مقتضى العقل والنقل، ويستحسن خلاف الشرع، وينتهك الحرمات، ويخل بالواجبات، ويدين بالبدع، ويستحسنها ويعمل بموجبها، فإن ذلك الناشئ عادة يكون منهم، ويعمل كعملهم، ويعتقد ما يعتقدونه من كفر أو إلحاد أو نفاق، أو بدع مضللة أو مفسقة، ويجزم بأن ذلك هو عين الصواب، وأن ما عداه خطأ وضلال. فتأثير البيئة والمجتمعات في تغيير الفطر وصرف القلوب أمر محسوس جلي لا شك فيه، وقد دل على ذلك الحديث المشهور عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء»^(١) ثم يقول أبو هريرة: "اقرأوا إن شئتم: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ فقد أخبر أن الطفل يولد على الفطرة، وهي الحنيفية السمحة، فلو ترك وفطرته لعرف أن له ربا خالقا مالكا متصرفا، وعرف أن الذي خلقه ورزقه وسخر له الأبوين، وكمل خلقه، أن له عليه حقوقا وعبادات، كما على العبد لمالكه. ثم أخبر أنه ينصرف وينحرف عن تلك الفطرة بما ألقى عليه أبويه، حيث نشأ معها وتلقى عنها ما يدينان به من يهودية أو نصرانية أو مجوسية، أو وثنية أو بوذية أو هندوسية، أو غيرها من الملل الكفرية، وهكذا إن كان أبواه يعتقدان عقيدة منحرفة، كبعدة الرافضة والفلاسفة، والدروز والباطنية، والبعثية والنصيرية، والمعطلة والمشبهة، والبهائية والقاديانية، ونحوها، فإن الأبوين يلقتان أولادهما ما يدينان به؛ فيترى الطفل على تلك العقائد الضالة جازما بصحتها، عازفا عما سواها، لا يحدث نفسه بالنظر في غيرها، فيعزب عن باله ما تتكون منه، وما تحويه من الكفر والضلال، والانحراف عن الهدى المستقيم، ولا يتصور ما يرد عليها من الأدلة النيرة التي توضح فسادها، وقد قال تعالى في اليهود: ﴿وَلَكِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ [سورة البقرة الآية ١٤٥] مع أن هذا في شأن القبلة، وهي فرد من جزئيات الديانة، فكيف بأصل العقيدة، فقد قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [سورة البقرة الآية ١٢٠]. فمتى تربى شخص منذ حدثته على أخلاق أو عقائد، ونشأ عليها وألفها، فإن تحويله عنها من الصعوبة بمكان، مهما بذلت له المحاولات، وأقيمت عليه البراهين، وأوضحت له الحجج التي تثير الحق، وتبين سفاهة من دان بتلك الأديان الباطلة، أو انتحل تلك النحل الزائغة، أو صدق بتلك العقائد المنحرفة: ﴿فَاتَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [سورة الحج الآية ٤٦]. فرجوع مثل هذا إلى الصواب مع رسوخ الباطل في ذهنه، شبه المستحيل إلا ما شاء الله. ولما كانت التربية في سن الطفولية لها هذا التأثير في تقويم الإنسان أو انحرافه، رأينا النصارى والرافضة ونحوهم من أعداء الإسلام والسنة يبذلون كل وسيلة، ويعملون كل حيلة في الحصول على ولاية وحضانة وتربية أطفال المسلمين، سيما الذين يفقدون آباءهم بموت أو قتل أو غيبة أو سجن مؤبد أو تشريد، كما هو حاصل في كثير من البلاد تاركين خلفهم أعدادا كثيرة من الأطفال والذري، ممن لا يزالون في سن الطفولية، فبعد أن يغيب أو يموت الآباء، ويبقى أولئك الأطفال منقطعين، لا يجدون من يعولهم أو يرعى

(١) الحديث رواه البخاري برقم ١٣٨٥ وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه، والآية رقم ٣٠ من سورة الروم.

شئونهم من قريب أو نسيب ، أو ذي رحم ، أو مسلم يشفق على ذرية إخوته المسلمين ، فعند ذلك ينتهز الفرصة أعداء الدين ، من نصارى وشيوعيين ، ويهود وفلاسفة ، ورافضة وقبوريين ، والضلال من المتصوفة وغيرهم ، فيتتبعون أولئك الأطفال في أكواخهم ومساكنهم المتواضعة ، ويغرونهم بالمال ، وبالمنازل الرفيعة ، وينقلونهم من فقر وفاقة وشدة مؤنة إلى رغد عيش ورفاهية وبيوت مكيفة مكملة بكل ما يتمنون ، فيربونهم كما أرادوا ، ويعلمونهم الأديان التي ينتحلونها ، ويتولون تنشئتهم كما يريدون ، ويغسلون أدمغتهم من روح الإسلام ، ومن دينهم الذي ولدوا عليه ، والذي صبر عليه آبائهم وأجدادهم ، وتمسكوا به وعضوا عليه بالنواجذ حتى فارقوا الدنيا . وبلا شك أن هؤلاء الأطفال متى نشأوا وتربوا على أيدي أولئك الكفار والمبتدعين ، بعيدين عن أهليهم وأوطانهم ، ومقر أديانهم وأديان أسلافهم ، فإنهم يدينون بديانة أولئك المربين والمدرسين ، لا يعرفون غيرها ، ولا يخطر ببالهم أن هناك ديناً أصح مما تعلموه ؛ فيصبح أولاد المسلمين كفاراً ومشركين ، أو نصارى ويهوداً ، أو روافض ومبتدعين ، أو نحو ذلك من الديانات الباطلة ، ويصبحون وبالا على الدين الصحيح ، وأعداء للإسلام الذي هو دين آبائهم وأسلافهم ، والواقع يشهد بذلك . وقد ذكر بعض الدعاة الذين سافروا إلى البلاد النازحة أن أعداداً كبيرة من مسلمي الهند ومسلمي أفغانستان نزحوا إلى قارة أستراليا التي يحكمها النصارى ، فنشأ أولادهم على دين النصارى ، وتعلموا لغتهم ، ودانوا بها هم عليه ، حيث لم يكن هناك من يعلمهم دين الإسلام ، فتولى النصارى تربيتهم ولقنوهم دين النصرانية .

فتح المدارس والمستشفيات في بلاد الإسلام :

لقد فكر أعداء الله تعالى فيما يتوصلون به إلى إضلال المسلمين ، ويكسبون به قلوبهم وأبدانهم ، ويغيرون به أديانهم ، فبذلوا كل جهد في التهويد والتنصير ، والإخراج من المعتقد السليم ، والدين القويم ، بعد أن رأوا قوة المسلمين وانتصارهم ، وفتحهم البلاد بعد فتحهم القلوب ، ورأوا أن الدين الصحيح والعقيدة السلفية لا يقوم أمامها قائم ، ولا يستطيع مقاومتها ذو قوة وبأس ومنعة ، فلم يجدوا سوى الغزو الفكري ، والسعي في الصد عن الصراط السوي ، فبذلوا كل ما يستطيعونه من قوة ، وأعملوا كل حيلة ووسيلة ، وكان من بين ما فكروا فيه ، ونجحوا في تفكيرهم ، هو فتح المدارس التبشيرية كما يعبرون ، فأسسوا الكثير من تلك المدارس في بلاد يدين أهلها بالإسلام ، سيما بين الدول الفقيرة التي تعوزها النفقة ، ويهم أحدهم تحصيل القوات الضروري ، فانتهاز أولئك المنصرون الفرص في حينها ، وعرضوا عليهم أن يبنوا لهم مدارس ومستشفيات ، ودور تعليم ، وخدموهم بأن ذلك للرفق بهم والرحمة والإنسانية ، وقاسموهم أنهم لهم ناصحون ، ليعلموا أولادهم ، ويعالجوا مرضاهم ، فصدقهم أولئك الأهالي ، فبادروا وانتهزوا الفرصة ، ولم يهمهم ما بذلوا من الأموال الطائلة في إنشاء المدارس والمعاهد والجامعات ، وما أولوهم من العناية والتربية والتعليم والعلاج ، هذه حيلة

النصارى ، ومثلهم الرافضة الذين يدعون الإسلام وهم بعيدون منه ، فقد اشتهر عنهم غزوهم لأغلب البلاد الإسلامية التي يدين أهلها بالسنة ؛ ليصرفوهم إلى عقيدة الرافض والتشيع ، فيؤسسون عندهم ما يحتاجونه من المدارس والمرافق ، ويبدلون لهم المنح الدراسية ، ويحرصون على استقدام أفواج الطلاب من مختلف البلاد الإسلامية التي تدين بعقيدة أهل السنة ؛ ليتولوا تعليمهم كما يشاءون فيزينون لهم معتقد التشيع الزائغ ، ويوهمونهم صحة ما هم عليه ، وهكذا يفعل كل من كان على نحلة أو اعتقاد - ولو اتضح خطؤه - في الدعوة إلى أديانهم ، وعدم المبالاة بما يصرفونه على تأسيس تلك المدارس ودور التعليم ، ولا يهتمهم ما أنفقوه على التلاميذ ، وما أعطوه لهم من قليل المال وكثيره ؛ ليكون ذلك حافزا لأولئك الجهلة على الانضواء تحت رعايتهم ، والتهافت إلى مدارسهم ودور تعليمهم ، والتلقي عن أساتذتهم ؛ لكون التعليم مجانا ، باسم التعليم والتثقيف ، وإزالة الجهل ، مع ما يبذلون للطلاب ويغرونهم به من المرتبات والجوائز ، والأطعمة المجانية ، والكسوة وإنفاق كل ما يحتاجونه من الكتب والأقلام والدفاتر ، والأدوات المدرسية ، فلا جرم تمكنوا من نيل مقاصدهم ، فوصلوا إلى تبديع وتنصير الفئات والجماعات من شباب المسلمين وكهولهم وشيوخهم ، بهذه الخيل الفاتنة ، وحيث إن تربية الأطفال ينتج عنها التدين بما يلقيه المربي ، واعتقاده أصلا ومنهجاً ، يصعب الانفكاك عنه والتخلي عن العمل به ، ولو كان في أصله ديناً باطلاً ، أو كفراً أو ضلالاً ، فإن هذه الحضانة والتربية بأيدي الكفار والمضلين لا تجوز شرعاً ، فلا يجوز أن يمكن الكافر من تولي الطفل المسلم حال طفوليته ، ولو كان ذلك الكافر أو المبتدع أباه أو أخاه ، أو قريبه أو نسيبه ، كما أن القريب المسلم إذا كان فاسقاً أو عاصياً لا يجوز أن يتولى حضانة الصبي المسلم مهما كانت قرابته ؛ لأنه غير موثوق به في أداء الواجب من الحضانة ، ولا حظ للطفل في حضانته ؛ لأنه ينشأ على طريقتة ، ويقع فيما وقع فيه . وهذا أمر محسوس ، فإن المطلوب من الحضانة أمر زائد على الغذاء والحفظ البدني ، والتطهير والتنظيف الظاهر ، ذلك الأمر هو التغذية الروحية ، وتنمية الفطرة الدينية ، وتطبيقها عملياً ، فمتى كان المربي أو المعلم منحرفاً زائغاً في المعتقد ، أو متلبساً بذنب مكفر أو مفسق ، فإنه يظهر حال تلبسه به أمام أولئك الأطفال ، ويوهمهم أن ذلك الذنب حسن أو لا محذور فيه ، فلذلك يشاهد أن المبتدعة كالمعتزلة والرافضة ونحوهم ينشأ أولادهم على معتقدهم الزائغ ، كما أن تارك الصلاة وشارب الخمر والمدخن والزاني وآكل الربا والسارق والقاذف واللعان والطعان ونحوهم يألف أولادهم تلك المعاصي ، ويفعلونها محاكاة لأبائهم ، ويصعب تحويلهم عنها ، حيث نشأوا عليها منذ نعومة أظفارهم ، فلا يعرفون سواها ، ولم يجدوا موجهاً صالحاً في صغرهم ينبههم على خطرها وضررها . فإذا كان هذا في العصاة والمذنبين فكيف بالكفار والمشركين من النصارى والوثنيين والملحدين . وإليك بعض ما قال علماء الإسلام في حضانة الكافر للمسلم وحكمها .

قال أبو محمد ابن قدامة في المغني ٧ / ٦١٢ : " ولا تثبت - يعني الحضانة - لكافر على مسلم ، وبهذا قال مالك والشافعي وسوار والعنبري . وقال ابن القاسم وأبو ثور وأصحاب الرأي : تثبت له ؛ لما روي عن عبد الحميد بن جعفر ، عن أبيه

عن جده رافع بن سنان أنه أسلم وأبت امرأته أن تسلم ، فأنت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : ابنتي وهي فطيم أو شبهه . وقال رافع : ابنتي .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أقعد ناحية » وقال لها : « اقعدي ناحية » ، وقال : « ادعواها » فمالت الصبية إلى أمها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم اهدها » فمالت إلى أبيها فأخذها . رواه أبو داود ^(١) . ولنا : أنها ولاية ، فلا تثبت لكافر على مسلم ، كولاية النكاح والمال ، ولأنها إذا لم تثبت للفاسق فالكافر أولى ، فإن ضرره أكثر ، فإنه يفتنه عن دينه ويخرجه عن الإسلام بتعليمه الكفر وتزيينه له ، وتربيته عليه ، وهذا أعظم الضرر . والحضانة إنما تثبت لحظ الولد ، فلا تشرع على وجه يكون فيه هلاكه وهلاك دينه . فأما الحديث فقد روي على غير هذا الوجه ، ولا يثبت أهل النقل ، وفي إسناده مقال . قال ابن المنذر ^(٢) : ويحتمل أن النبي صلى الله عليه وسلم علم أنها تختار أبابها بدعوته ، فكان ذلك خاصا في حقه " اهـ .

وهذا الخلاف المذكور وقع فيما إذا كان الكافر قريبا للطفل ، كالأم التي هي أولى بالحضانة ، وأعرف بشئون التنظيف والعناية بالطفل ، وأصبر على حمله وفصاله ، وأعرف بتغذيته ورعاية مصالحه . وقال ابن حزم في المحلى ١١ / ٧٤٢ : " الأم أحق بحضانة الولد الصغير والابنة الصغيرة حتى يبلغا المحيض أو الاحتلام أو الإنبات مع التمييز وصحة الجسم ، فإن لم تكن الأم مأمونة في دينها ودنياها نظر لهما بالأحوط في دينهما ثم دنياهما ، فحيثما كانت الحياطة لهما في كلا الوجهين وجبت هنالك ، عند الأب أو الأخ أو الأخت أو العمة أو الخالة ، أو العم أو الخال . وذو الرحم أولى من غيرهم بكل حال ، والدين مغلب على الدنيا . . . والأم الكافرة أحق بالصغيرين مدة الرضاع ، فإذا بلغا من السن والاستغناء ومبلغ الفهم فلا حضانة لكافرة ولا فاسقة . . . وأما تقديم الدين فلقول الله عز وجل : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [سورة المائدة الآية ٢] وقال تعالى : ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ﴾ [سورة النساء الآية ١٣٥] وقوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ [سورة الأنعام الآية ١٢٠] فمن ترك الصغير والصغيرة حيث يدربان على سماع الكفر ، ويتمرنان على جحد نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى ترك الصلاة ، والأكل في رمضان ، وشرب الخمر ، والأنس إليها حتى يسهل عليهما شرائع الكفر ، أو على صحبة من لا خير فيه ، والانهماك على البلاء فقد عاون على الإثم والعدوان ، ولم يعاون على البر والتقوى ، ولم يقم بالقسط ، ولا ترك ظاهر الإثم وباطنه ، وهذا حرام ومعصية ، ومن أزالهما عن المكان الذي فيه ما ذكرنا إلى حيث يدربان على الصلاة والصوم ، وتعلم القرآن ، وشرائع الإسلام ،

(١) هو في سنن أبي داود في كتاب الطلاق برقم ٢٢٤٤ ، ورواه أيضا النسائي في سننه (المجتبى) ٦ / ١٨٥ ، وابن ماجه في الأحكام برقم ٢٣٥٢ من طرق عن عبد الحميد بن جعفر ، عن أبيه به . وعند ابن ماجه : عن عبد الحميد بن سلمة . وجعل النسائي المولود ذكرا ، وكذا عند ابن ماجه . وذكر المزي أن رافع بن سنان هو جد جد عبد الحميد ؛ فيكون الحديث مرسلا أو منقطعاً . وذكره البوصيري في الزوائد وقال : عبد الحميد وأبوه وجده مجهولون .

(٢) وفي طبعة التركي : قاله ابن المنذر . وقد يرجحه النقل عن ابن القيم كما يأتي .

والمعرفة بنبوّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتنفير عن الخمر والفواحش ، فقد عاون على البر والتقوى ، ولم يعاون على الإثم والعدوان ، وترك ظاهر الإثم وباطنه ، وأدى الفرض في ذلك .

وأما مدة الرضاع فلا نبالي عن ذلك ؛ لقول الله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [سورة البقرة الآية ٢٣٣] ، ولأن الصغيرين في هذه السن ومن زاد عليها بعام أو عامين لا فهم لهما ، ولا معرفة بما يشاهدان ، فلا ضرر عليهما في ذلك ، فإن كانت الأم مأمونة في دينها والأب كذلك فهي أحق من الأب ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ذكرنا ، ثم الجدة كالأم ، فإن لم تكن مأمونة لا الأم ولا الجدة في دينها ، أو تزوجت غير مأمون في دينه ، وكان الأب مأمونا فالأب أولى ثم الجد ، فإن لم يكن أحد ممن ذكرنا مأمونا في دينه ، وكان للصغير أو الصغيرة أخ مأمون في دينه ، أو أخت مأمونة في دينها فالمأمون أولى ، وهكذا في الأقارب بعد الإخوة ، فإن كان أحدهما أحوط في دينه ، والآخر أحوط في دينه ، فالحضانة لذي الدين - إلى أن قال - وأيضا فنحن لا ننكر تخييره إذا كان أحد الأبوين أرفق به ، ولا شك في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخير بين خير وشر ، ولا شك في أنه عليه الصلاة والسلام لا يخير إلا بين خيرين ، وكذلك نحن على يقين من أنه عليه الصلاة والسلام لا يترك أحدا على اختياره ما هو فساد له في دينه أو في حالته ، فقد يسوء اختيار الصغير لنفسه ، ويميل إلى الراحة والإهمال . . . " إلى آخر كلامه رحمه الله تعالى .

فمتى سقطت حضانة القريب الذي يهمل الأولاد ، أو يربيههم على الكفر والفسوق والمعاصي ، أو في مجتمع وبيئة بعيدة عن العلم

والدين وتفاصيل الشريعة ، فبطريق الأولى إذا كان المربي بعيد الصلة والنسب من أولئك الأطفال ، ولا قصد له ولا أرب في إصلاح أديانهم ، بل جل همهم صرفهم عن عقيدتهم ، وتلقينهم ملة غير ملة آبائهم وأسلافهم ، وهذا بلا شك هدف تلك الدول الكافرة من حرصهم على احتضان ذراري المسلمين الذين فقدوا آباءهم وأهليهم ، أو الذين ابتلوا بالفقر والفاقة ، واشتدت حاجتهم إلى المادة البدنية والروحية ، وقد اتفق جمهور العلماء على أن العاصي والفاسق لا ولاية له على الصبي المحكوم بإسلامه ، وأحب أن أنقل هنا كلام بعض العلماء ، لتوضيح ذلك ، وذكر المفاصل التي تنشأ عن تولي الفسقة وتربيتهم ، فمن ذلك كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، قال في مجموع الفتاوى ٣٤ / ١٣١ : " فلو قدرنا أن الأب ديوث لا يصونه والأم تصونه لم نلتفت إلى اختيار الصبي ، فإنه ضعيف العقل ، قد يختار أحدهما؟ لكونه يوافق هواه الفاسد ، ويكون الصبي قصده الفجور ومعاشرة الفجار ، وترك ما ينفع من العلم والدين والأدب والصناعة ، فيختار من أبويه من يحصل له معه ما يهواه ، والآخر قد يردده ويصلحه . ومتى كان الأمر كذلك فلا ريب أنه لا يمكن من يفسد معه حاله . والنبي صلى الله عليه وسلم قال : « مروهم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم في المضاجع »^(١) فمتى كان أحد الأبوين يأمره بذلك والآخر لا يأمره ، كان عند الذي يأمره بذلك دون الآخر ؛ لأن ذلك الأمر له هو

(١) رواه أبو داود كما في سننه برقم ٤٩٥ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

المطيع لله ورسوله في تربيته ، والآخر عاص لله ورسوله ، فلا نقدم من يعصي الله فيه على من يطيع الله فيه ، بل يجب إذا كان أحد الأبوين يفعل معه ما أمر الله به ورسوله ، ويترك ما حرم الله ورسوله ، والآخر لا يفعل معه الواجب ، أو يفعل معه الحرام ، قدم من يفعل الواجب ، ولو اختار الصبي غيره ، بل ذلك العاصي لا ولاية له عليه بحال ، بل كل من لم يقم بالواجب في ولايته فلا ولاية له عليه ، بل إما أن ترفع يده عن الولاية ويقام من يفعل الواجب ، وإما أن يضم إليه من يقوم بالواجب معه ، فإذا كان مع حصوله عند أحد الأبوين لا تحصل طاعة الله ورسوله في حقه ، ومع حصوله عند الآخر تحصل قدم الأول قطعاً " اهـ .

فهذا كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في الأبوين ، مع ما جبلا عليه من الشفقة والرحمة حيث ذكر أن الولد لا يقر على اختياره إذا مال مع الذي لا يصلحه ولا يربيته التربية الإسلامية ، فكيف إذا كان المربي أجنبياً من الطفل ، بعيداً عن قصد إصلاحه في دينه وعقيدته ، بل لا يألو جهداً في إبعاده عن دين الإسلام ، وتلقينه ملة الكفر التي يدين بها ذلك المربي ، ويعتقد النجاة في اعتناقها . وقد صرح ابن القيم رحمه الله تعالى باشتراط اتفاق الدين بين الحاضن والمحضون ، فقال رحمه الله في (زاد المعاد) ٤ / ١٣٢ : وقد اشترط في الحاضن ستة شروط (اتفاق الدين) فلا حضانة لكافر على مسلم ؛ لوجهين :

أحدهما : أن الحاضن حريص على تربية الطفل على دينه ، وأن ينشأ عليه ويتربى عليه ، فيصعب بعد كبره وعقله انتقاله عنه ، وقد يغيره عن فطرة الله التي فطر عليها عباده ، فلا يراجعها أبداً ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه »^(١) فلا يؤمن تهويد الحاضن وتنصيره للطفل المسلم .

وإن قيل : الحديث إنما جاء في الأبوين خاصة . قيل : الحديث خرج مخرج الغالب ، إذ الغالب المعتاد نشوء الطفل بين أبويه ، فإن فقد الأبوان أو أحدهما قام ولي الطفل من أقاربه مقامهما .

الوجه الثاني : أن الله سبحانه قطع الموالاة بين المسلمين والكفار ، وجعل المسلمين بعضهم أولياء بعض ، والكفار بعضهم أولياء بعض . والحضانة من أقوى أسباب الموالاة التي قطعها الله تعالى بين الفريقين . وقال أهل الرأي وابن القاسم وأبو ثور : تثبت الحضانة لها مع كفرها وإسلام الوالد ، واحتجوا بما روى النسائي في سننه ، من حديث عبد الحميد بن جعفر عن أبيه عن جده رافع بن سنان أنه أسلم وأبت امرأته أن تسلم ، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : ابنتي وهي فطيم أو شبهه ، وقال رافع : ابنتي . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اقعد ناحية » وقال لها : « اقعدي ناحية » وقال لهما :

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم ١٣٨٥ وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه وقد تقدم .

« ادعواها » فمالت الصبية إلى أمها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم اهداها » فمالت إلى أبيها فأخذها^(١) . قالوا : ولأن الحضانة لأمرين : الرضاع ، وخدمة الطفل ، وكلاهما يجوز من الكافرة . قال الآخرون : هذا الحديث من رواية عبد الحميد بن جعفر بن عبد الله بن الحكم بن رافع بن سنان الأنصاري الأوسي ، وقد ضعفه إمام العلل يحيى بن سعيد القطان ، وكان سفيان الثوري يحمل عليه ، وضعف ابن المنذر الحديث ، وضعفه غيره ، وقد اضطرب في القصة ، فروى أن المخير كان بنتا ، وروى أنه كان ابنا .

وقال الشيخ في (المغني) : وأما الحديث فقد روي على غير هذا الوجه ، ولا يثبت أهل النقل ، وفي إسناده مقال . قاله ابن المنذر . ثم إن الحديث قد يحتج به على صحة مذهب من اشترط الإسلام ، فإن الصبية لما مالت إلى أمها دعا النبي صلى الله عليه وسلم لها بالهداية فمالت إلى أبيها ، وهذا يدل على أن كونها مع الكافر خلاف هدى الله الذي أراده من عباده ، ولو استقر جعلها مع أمها ، لكان فيه حجة ، بل أبطله الله سبحانه بدعوة رسوله . ومن العجب أنهم يقولون : لا حضانة للفاسق . فأى فسق أكبر من الكفر ، وأين الضرر المتوقع من الفاسق بنشوء الطفل على طريقته إلى الضرر المتوقع من الكافر . اهـ .

هذا كلام ابن القيم رحمه الله فارجع إليه في معرفة بقية الشروط ، وكل هذا فيما إذا كان الحاضن أحد الأبوين ، أو الأقارب الذين تربطهم بالطفل أواصر الأخوة والشفقة والرحمة ، لأجل القرابة ، وحمية الرحم ، وتدفعهم تلك الغريزة إلى النصح لهم ، وبذل الخير والدلالة عليه ، وأخذ الحيطة والحماية عن أسباب الردى .

وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى في (روضة الطالبين) ٩ / ٩٨ : " فالحضانة للأم إن رغبت فيها ، لكن لاستحقاقها شروط :

أحدها : كونها مسلمة إن كان الطفل مسلماً بإسلام أبيه ، فلا حضانة لكافرة على مسلم ، وقال الإصطخري : لها الحضانة .

وقيل : الأم الذمية أحق بالحضانة من الأب المسلم إلى أن يبلغ الولد سبع سنين ، ثم الأب بعد ذلك . قال الأصحاب : والصحيح الأول ، فعلى هذا حضانته لأقاربه المسلمين على ما يقتضيه الترتيب ، فإن لم يوجد أحد منهم فحضانته على المسلمين . . . ولو وصف صبي من أهل الذمة الإسلام نزع من أهل الذمة سواء صححنا إسلامه أم لا ، ولا يمكنون من كفالته ، والطفل الكافر والمجنون تثبت لقريبه المسلم حضانته وكفالته على الصحيح ؟ لأن فيه مصلحة له " اهـ .

(١) رواه أبو داود برقم ٢٢٤٤ والنسائي وقد تقدم .

وقال صاحب (المذهب) في فقه الشافعية كما في الشرح ١٨ / ٣٢٠؟ "ولا تثبت - الحضانة - لكافر على مسلم، وقال أبو سعيد الإصطخري: تثبت للكافر على المسلم؛ لما روى عبد الحميد بن سلمة^(١) عن أبيه أنه قال: أسلم أبي، وأبت أمي أن تسلم، وأنا غلام، فاختصما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا غلام اذهب إلى أيهما شئت، إن شئت إلى أبيك، وإن شئت إلى أمك» فتوجهت إلى أمي، فلما رأي النبي صلى الله عليه وسلم سمعته يقول: «اللهم اهده» فملت إلى أبي فقعدت في حجره.

والمذهب الأول؛ لأن الحضانة جعلت لحظ الولد، ولا حظ للولد المسلم في حضانة الكافر؛ لأنه يفتنه عن دينه، وذلك من أعظم الضرر، والحديث منسوخ، ولأن الأمة أجمعت على أنه لا يسلم الصبي المسلم إلى الكافر "اهـ. ثم قال الشارح المطيعي في تكملة شرح المذهب ١٨ / ٣٢٢ بعد أن تكلم على الحديث: "وفي إسناده اختلاف كثير، وألفاظه مختلفة مضطربة" ونقل عن (التقريب) لابن حجر في ترجمة عبد الحميد بن جعفر قال: "صدوق رمي بالقدر، وربما وهم".

وقال أبو حاتم: لا يحتج به. وكان سفيان يضعفه، ووثقه ابن معين^(٢). ثم قال الشارح المطيعي في تكملة المجموع ١٨ / ٣٢٤: "ولا تثبت الحضانة لفاسق؛ لأنه لا يؤمن أن ينشأ الطفل على منزعه، وإن كان أحد الأبوين مسلماً، فالولد مسلم، ولا تثبت عليه الحضانة للكافر، وقال أبو سعيد الإصطخري: تثبت؛ لحديث عبد الحميد. ونقول: إن هذا الحديث استدل به القائلون بثبوت الحضانة للأم الكافرة، كأبي حنيفة وأصحابه، وابن القاسم المالكي وأبي ثور، وذهب الجمهور إلى أنه لا حضانة للكافرة على ولدها المسلم، وأجابوا عن الحديث بما فيه من المقال والاضطراب، وقال المصنف: إنه منسوخ، ولعله يحتج بأدلة عامة كقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء الآية ١٤١] وبنحو «الإسلام يعلمو ولا يعلى»^(٣) وقد استدلل ابن القيم بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [سورة التحريم الآية ٦] على أن المراعى أولاً في التخيير أو الاستهزام بالقرعة ما هو أصلح للصغير، وأن أياً ما كان الأمر من التخيير أو التعيين أو الاقتراع فإن أولئك مقيد بقوله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ وحكى عن شيخه ابن تيمية أنه قال: تنازع أبوان صبياً عند الحاكم، فخير الولد بينهما فاختر أباه، فقالت أمه: سله لأي شيء يختاره. فسأله فقال: أمي تبعثني كل يوم للكاتب والفقير يضرباني، وأبي يتركني ألعب مع الصبيان؛ فقضى به للأم.

(١) الصواب عبد الحميد بن جعفر، وقد تقدم الحديث مراراً، وهذا من الاختلاف فيه.

(٢) ذكر هذه الأقوال الذهبية في (ميزان الاعتدال) في ترجمة عبد الحميد بن جعفر.

(٣) رواه الدارقطني في سننه ٢ / ٢٥٢ عن عائذ بن عمر المزني، وعلقه البخاري كما في الفتح ٣ / ٢٢٠.

ورجح هذا ابن تيمية . فإذا كانت روح الشرع تقضي بمراعاة صالح الصغير ، فإن مما لا شك فيه أن إلقاءه في أحضان الكفر قضاء على صلاحه دنيا وأخرى ، ومن ثم يتعين خطأ أبي سعيد الإصطخري ، وأبي حنيفة وأصحابه ، وابن القاسم وأبي ثور . وقال العمراني : إن الحضانة لحظ الولد ، ولا حظ له في حضانة الكافر ؛ لأنه لا يؤمن أن يفتن عن دينه . ثم قال : أما الحديث فغير معروف عند أهل النقل يعني حديث عبد الحميد بن جعفر المتقدم مرارا . وإن صح فيحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم علم أنه يختار أباه ، فلهذا خيره ، فيكون ذلك خاصا لذلك الولد دون غيره " اهـ .

ومن هذه النقول يتضح أن الجمهور على منع ولاية الكافر ، وحضانته للطفل المسلم ، وأن من أجاز ذلك كأصحاب الرأي وهم الحنفية ومن وافقهم فقد خصوه بأحد الأبوين ، تمسكا بحديث عبد الحميد المذكور ، وقد عرفت ضعف الحديث وما فيه من الاختلاف ، ومع ذلك فلا مانع من حضانة الأم الكافرة في الصغر ؛ لمكان الشفقة والرحمة ، فإن زمن الرضاعة وبعده بسنة أو سنتين لا تأثير معه لدينها وأعمالها الكفرية ، لكن متى بلغ الطفل سنا يميز به ، ويعرف ما يتدين به ، ويتأثر بالتلقين ، ويخاف أن يألّف أعمال الكفار ويميل إليها ، وجب نزعها من أحضان أقاربه غير المسلمين ، وتسليمه إلى من يسعى في إصلاحه ، ويربيه التربية الإسلامية ، وهذا واجب على المسلمين عموما في كل دولة وبلد بالنسبة إلى أولاد إخوانهم ، من يتيم فقد أباه ومن يحصنه ويتولاه ، أو ينفق عليه من قريب أو أخ شقيق ، ومن فقير يعجز وليه عن النفقة وتوابعها ، فعلى المسلمين المؤمنين أن تحملهم الشفقة الدينية ، والأخوة الإسلامية على احتضان أولاد إخوانهم في الدين وعلى توليهم ورعايتهم وإصلاح أحوالهم ، وقد ورد الترغيب في كفالة اليتيم ، فعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا »^(١) وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئا . قال ابن بطال : حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ؛ ليكون رفيق النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا منزلة في الآخرة أفضل من ذلك ، والكافل هو القائم بأمر اليتيم المربي له .

وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من قبض يتيما من بين المسلمين إلى طعامه وشرابه أدخله الله الجنة البتة ، إلا أن يعمل ذنبا لا يغفر »^(٢) يعني مثل الشرك الذي لا يغفر إلا بالتوبة منه ، أو مثل حقوق الآدميين التي لا بد فيها من القصاص . وعن مرة الفهري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين »^(٣) في الوسطى والتي تلي الإبهام . وذكر الحسن البصري رحمه الله أن يتيما كان يحضر طعام ابن عمر ، فدعا بطعام ذات يوم ، فطلب يتيمة فلم يجده ، فجاء بعدما فرغ . . . فجاء بسويق وعسل فقال : دونك هذا فوالله ما غبنت .

(١) رواه البخاري كما في الفتح ١٠ / ٤٣٦ برقم ٦٠٠٥ ، والترمذي كما في تحفة الأحوذى ٦ / ٤٥ ، وأبو داود برقم ٤١٥٠ ، وأورد له الحافظ شواهد كثيرة وأشار الترمذي إلى عدة أحاديث .

(٢) رواه الترمذي في البر والصلة كما في التحفة ٦ / ٤٤ وفي إسناده ضعف .

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد برقم ١٣٣ وغيره .

قال الحسن : وابن عمر والله ما غبن^(١). والمعنى أن اليتيم لما فاته الطعام المعتاد عوضه عنه سويقا وعسلا ، وهو من خير الطعام ، فأخبره بأنهم ما غبنوه بأكلهم الطعام ، فقد حصل على خير منه ، وابن عمر ما غبن ؛ لحصوله على أجر إطعام اليتامى ، وكان ابن عمر رضي الله عنه لا يأكل طعاما إلا وعلى خوانه يتيم^(٢). وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه . أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين»^(٣) يشير بأصبعيه . وعنه رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين »^(٤) بأصبعيه السبابة والوسطى . وروى عبد الرحمن بن أبزى قال : قال داود عليه السلام : كن لليتيم كالأب الرحيم ، واعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد^(٥).

وقد حث الله تعالى على إعطاء اليتامى من الصدقات العامة والخاصة كقوله تعالى : ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ﴾ [سورة البقرة الآية ١٧٧] وقال تعالى : ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [سورة الإنسان الآية ٨] وجعل لهم حقا في الفياء وخمس الغنيمة بقوله : ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى﴾ [سورة الحشر الآية ٧] وقوله : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى﴾ [سورة الأنفال الآية ٤١] والآيات في ذكر اليتامى كثيرة معلومة ، ففي هذه النصوص الحث على كفالة اليتامى ، والإنفاق عليهم ، واحتضانهم ، والحرص على إنقاذهم من الفقر والجوع والضرر والهوان ، وحمايتهم من ولاية الشيوعيين والمشركين ، واليهود والنصارى ، والروافض ، وسائر المبتدعين الذين لا هدف لهم سوى الإضلال والإخراج من الدين القويم ، فمتى تساهل المسلمون وانشغلوا عن هؤلاء اليتامى والمعوزين انتهز هؤلاء الأعداء الفرص وتقبلوا رعايتهم ، فبذلك يخسرهم المسلمون ، بل يصبحون حربا على آبائهم وإخوانهم ، وأقاربهم وأسلافهم الذين هم من رجال الدين وأعوانه . والواقع يشهد بذلك ، فإن النصارى ييثون دعائهم في الأقطار الإسلامية ، ويمدوهم بالأموال الطائلة ، فيقومون بتأسيس المدارس لجميع المراحل ، وتلقين أولاد المسلمين مبادئ النصرانية وعلومها مجانا ؛ كما يقومون ببناء المستشفيات والعلاج فيها مجانا ، ليكسبوا بذلك قلوبهم ، ولينشئوا الأطفال في بيئة بعيدة عن الإسلام وعلومه ، ومن ثم يميل هؤلاء الفقراء واليتامى إلى النصارى ، لما رأوا من جهود أهل النصرانية ، وهكذا يفعل دعاة الروافض في استجلاب العامة إلى معتقدتهم الزائغ بهذه الحيل والأسباب ، ولقد قرأت سابقا في مجلة المجتمع العدد (٦١٦) وتاريخ ٢٨ / ٦ / ١٤٠٣ هـ ما نصه : " ففي الوقت الذي تعمل فيه الدوائر التنصيرية على تنصير المسلمين

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد برقم ١٣٤ وإسناده صحيح إلى الحسن وهو البصري .

(٢) كما عند البخاري في الأدب المفرد برقم ١٣٦ وله في الصحيح نحوه في كتاب الأطعمة الباب ١٢ .

(٣) رواه ابن ماجه برقم ٣٦٧٩ ، والبخاري في الأدب المفرد برقم ١٣٧ ، وإسناده ضعيف .

(٤) رواه مسلم كما في الزهد من صحيحه برقم ٢٩٨٣ مسندا ، ورواه مالك ٢ / ٩٤٨ مرسلا .

(٥) رواه البخاري في الأدب المفرد برقم ١٣٨ مطولا .

في مخيمات اللاجئين في الدول المجاورة لأفغانستان ، وإغرائهم بالابتعاد عن ساحات الجهاد ، تقوم الشيوعية الملحدة وبمختلف الوسائل لتحويل أبناء المسلمين اليتامى إلى الشيوعية ، فقد أفادت الأنباء مؤخراً بأن قوات الاحتلال السوفيتي أرسلت ومنذ ثلاث سنوات أكثر من سبعة وعشرين ألف طفل مسلم أفغاني عنوة إلى موسكو ، بهدف تغيير معتقداتهم " اهـ .

أفلا يكون المسلمون وأهل السنة أولى بالاهتمام وبذل الجهود في تنشئة وتربية الأطفال ، حتى أولاد الكفار والمشركين الصغار الذين لم يزلوا على فطرة الله التي فطر الناس عليها ، فإن هناك دولا كثيرة تعاني من الفقر والفاقة ، والشدة والحاجة الشيء الكثير ، مع بقائهم على الملل الكفرية ، وكثيرا ما تجري بينهم الحروب والمنازعات التي لا يكون الهدف منها سوى الأغراض المادية البحتة ، ففي تلك الحال يسهل اقتناص شبابهم وأطفالهم ، وتنشئهم على " الإسلام الذي هو دينهم بأصل الفطرة ، وذلك يحتاج إلى تكريس جهود مخلصه ، وإلى أموال طائلة تبذل في سبيل الله ، وفي بناء المساجد ، وفتح مدارس خيرية ، وطبع المصاحف وتوزيعها بين المسلمين ، وترجمة كتب العقيدة والتوحيد بشتى اللغات ، وتفريقها هناك ، والحرص على إبعاد أولئك الأطفال والشباب عن المجتمعات والبيئات الكفرية ، وتعليمهم اللغة العربية ، فمن ثم يتم التأثير ، ويقوى الإسلام وأهله ، ويكثر معتنقوه ، ويدخل الناس في دين الله أفواجا ، بدل ما هم يخرجون منه أفواجا ، وبقوة الإسلام والمسلمين يتم الأمن والاستقرار ، ويحيا المسلمون الحياة الطيبة ، ويردون غزو الأعداء وفتكهم وحيلهم التي قد نجحوا في الكثير باكتساح كثير من بلدان المسلمين ، وكثير من القبائل والأسر التي أصبحت معهم ، وتدين بمعتقداتهم السيئة . فمتى يفيق المسلمون من هذا السبات والغفلة؟! فالله المستعان ، وعليه التكلان ، وصلى الله على محمد ، وآله وصحبه وسلم^(١) .

(١) المصدر : مجلة البحوث الإسلامية ، ع : ٥٣ / ص ١٢٦ ، ١٧٥ .